( كن أو لا تكن)

كان هناك فتى في عمرالشباب في السنة الخامسة عشر من عمره، طيب القلب، مرهف الإحساس، مفعم بالحيوية و النشاط ممزوج بعبق العزيمة والإصرار على تحقيق الهدف أي كان، قوي البنية،معتدل القامة ،حاد العينان، سريع البديهة ، بالرغم من الخصال الحسنة ،إلا أنه فقد حاسة من أعظم الحواس، لنعد إلى بداياته ليروي لنا كيف فقد الحاسة التي وجب علينا أن نشكر ربنا عليها ونحمده ....

يوسف و هو يصف حياته قبل الحادث و بعدها : ( في إحدى الليالي المقمرة أي يكتمل فيها القمر بدرا يشع بنوره الوضاء في جميع أنحاء قريتي الجميلة ، قبيل الحادث الذي غير مجرى حياتي كلها و انقلبت بائسة و يائسة ، كنت أعيش مع أسرتي المتواضعة بسعادة لاتوصف ، و كنت بارا بوالدي و حظيت بمحبة كبيرة بين أفراد قبيلتي ، و في ذلك اليوم حدث شي لم أكن أتوقعه و لم يخطر ببال أحد منا – أخذ يدمع و يكتم عبراته- ، شب حريقا عنيفا في منزلي نتج عنه سوء استخدام الأجهزة الإلكترونية ،فأتوا رجال الإطفاء و أطفؤاالحريق و نقلنا الى المشفى بسيارة الإسعاف و دخلت أنا في غيبوبة و أهلي لم أعلم ماذا جرى لهم .

اسيقظت بعد غيبوبة دامت ثلاثة اسابيع من وقوع الحادث ، و كان عمي حزام يزورني كل يوم و يدعو لي بالشفاء العاجل حينها ، اسيقظت و و جدت عمي ينظر إلي بأسف فسألته و قال لي : (( دعني استدعي الطبيب المختص لك )) فتمتم يوسف و قلت في نفسي : (( ماذاحدث لوالدي )). بعد فترة وجيزة ، أتى الطبيب و قال لي:(( عندي خبر محزن جدا لكن لا تنصدم كيلا يؤثر على سمعك فنسبة إصابتك بالصمم المؤبد كبيرة)) ، فقلت : (( تفضل قل ما تريد)) فأجاب قائلا: والداك أعطاك عمرهما ، عظم الله أجرك .. تردد صدى الكلمات بأذني و انصدمت بقوة حتى أغمي علي و أنا أتصبب عرقا فأصبحت يتيم الأم و الأب .

حزنت كثيرا عند تلقي خبر إصابتي بالصمم المؤبد ،و فكرت أن لن أكمل حياتي كباقي أقراني ، فعشت يائسا بائسا في حياتي إلى أن تكفل بي عمي و أخذني إلى منزله و استقبلني أولاد عمي بالفرحة و السرور لكنهم حزينون لحالتي ، فكانوا يتكلمون معي بالكتابة و الكلام من طرفي ، لكن امرأة عمي كانت متسلطة و لا تحبني لانني كنت أجمل منها ، فكانت ترغمني أن أنظف بيتها و أطبخ لها الأكل و أعمل لديها كالخادم ، حتى وصل الأمر إلى إذا رفضت العمل أو الطبخ تذهب و تحضر لي حديدا تسخنها بالنار و تكويها على جسمي الهزيل المسكين تحت أنظار أولاد عمي المشفقة .

بالرغم من أنني ميئوس من هذه الحياة و فقدت الأمل فيها ألا أن استطاع أحد أولاد عمي و هم حسام 17 سنه ، حازم 15 سنه حلا 11 سنه و اخيرا سهى 7 سنوات ، أن يبثوا في داخلي الأمل و الإصرار للعيش بالحياة لكن حلا كانت مختلفة عنهم تواسيني و تبث فيني روحا معنويا و تشجعني للدراسة في مدرسة الأصم لأتعلم لغة الإشارة . حلا فتاة مجتهدة في دراستها ، حسنة الخلق عكس والدتها تماما تحب فعل الخير دائما و هي من أقنعتني بالذهاب الى مدرسة لتعلم لغة الإشارة .

بعد 6 سنوات من حدوث الحادث ، أصبح عمري 21 سنه و بدأت أتقن لغة الإشارة بطلاقة و معي ابنة عمي لتكون مترجمة لي و دخلت الى جامعة بلدي و حصلت على شهادة البكاليورس في قسم العلوم و الإختراعات. بدأت بالتفكير في اختراع آلة أو أداة أو جهاز يسهل التواصل بين الأصم و الناس و كذلك حلا حتى وقعنا كل منا في حب قلب الآخر و كنت أحبها جدا و هي تحبني لأنها الوحيدة التي ساندتني في محنتي و لم يتخلى عني غيرها فجزاها ألف خير على ما قدمت لي.

بعد فترة ، أعطتني حكومة بلدي منحة لأسافر الى بريطانيا لكي أدرس التخصص الذي أحبه ، فتعلمت أساسيات هذه التخصص مثل : الذكاء و التركيز و التفكير السليم . و حصلت على شهادة الماجستير و رجعت الى بلدي و وقتها كان عمي غير موجود في المنزل فاستلمتني إمرأة عمي بالضرب و التعذيب حتى ضقت ذرعا منها و قلت : (( كفى يا خالة لماذا تعامليني هكذا أنا لم أفعل شيئا يستحق كل الضرب المبرح هذا أخبرني فقط ماذا فعلت ؟؟)) فأجابت : (( لا شأن لك ، أنا أريد ضربك لأنك أجمل مني و أنا أريد أن أكون أجمل أنسانه في العائلة كلها )) . سكت و عاد عمي و هنئنني و تحمد لي بالسلامة و أخبرته بما حدث قبل 6 سنين فقالت زوجته مدافعة عن نفسها قائلة: (( والله أنه ليكذب – و أخذت تتظاهر بالبكاء و الدموع دموع تماسيح – ابن أخيك هذا حاول اغتصابي و التحرش في حتى أنه حاول حبسي بالغرفة )) و أخذت تبكي بكذب . فشهد شاهد من أطفالها و قالوا لأبيهم : (( إنها تكذب و يوسف هو الصادق )) فقال حزام لزوجته : (( أنتي أنسانه كاذبة و مفترية و مغرورة تهتمين بمظهرك و لا أريد أما تكون قدوة سيئة لإطفالي ،- ثم سكت – و قال : أنتي طالق.. طالق .. طالق بالثلاث )) فأخذت زوجته تبكي و هربت من المنزل و صدمتها سيارة و لقت حتفها .

فرحت كثيرا عندما أظهر الأخوة الثلاثة الحقيقة ، شكرت ربي و قلت لعمي : (( عمي لي طلبين أريد أن تلبي إياه ممكن ؟)) فأجابني : ((تفضل ، آذاني صاغية لطلبك )) فقلت: (( الله يطول بعمرك يالغالي أولهما أريد أن أسافر إلى كاليفورنيا لكي أبدأ بالبحث عن أفكار جديدة و إختراع أداة تمكنني من تواصل الناس مع الأصم أو العكس و لهذا أريد يد ابنتك حلا على سنة الله و رسوله كيلا أقع في الحرام هناك.)) فسر عمي بهذا الخبر و سر أيضا أولاد عمي و قال عمي : (( أبشر فقط أعطني مهلة 5 دقائق لأخذ رأي حلا فالرأي الأول و الأخير لها . )) . فوافقت حلا و تم القران و الزواج. و بعد أسبوعان ذهبنا الى كاليفورنيا حيث أتفرغ للإبتكار و الحصول على شهادة الدكتوراه و كذلك حلا في تخصصها تقنية المعلومات.

مرت تقريبا حوالي 5 سنين منذ أن سافرنا، عمي حزام مشتاق لنا ،و يريد أن يرانا ، و هــأنذا أتيت مع زوجتي حلا و كانت حاملا بشهرها الثامن إلى وطننا ، أرض الإمارات الطيبة و معنا انجاز أذهل العالم كله، فقد اخترعت أداة تشبه الراديو يمكن من تحويل الموجات الصوتية لدى الشخص العادي إلى إشارات يفهمها الشخص المصاب ، و قد حصلت على براءة اختراع من أمريكا .

فرح عمي كثيرا بالإنجاز الذي حققته، و فرح أولاد عمي حازم و حسام و سهى على إنجازي ، فسجدت شكرا لله على النعمة التي أنعم علي و دعيت ربي قائلا : (( ربي أسالك أن تغفر لي و لوالدي و للمؤمين منهم الأموات و الأحياء منهم يوم الحساب و الحمدالله على ما أنعمت علي و وفقت في خدمة العالم )) حينئذ تذكرت والداي و تمنيت أن يكونا معي ليشهدا ابتكاري و يفخران بي فدعوت لهما بالمغفرة و الرحمة و أخذت عيني تجري الدموع على خدي حتى تأثر الحاضرون ، ألقيت كلمة أصف فيها حياتي بمساعدة زوجتي حلا و في النهاية قلت : (( أشكر كل من ساعدني في نجاح هذا المشروع و أشكر ايضا عمي حزام الذي تولى تربيتي منذ وفاة والداي و أشكر أولاد عمي الذين بثوا فيني روح الأمل و الإصرار على تحقيق الهدف و أشكر ايضا زوجتي التي تحبني بالرغم من إعاقتي الحسية و أحبها بكل عيوبها و مميزاتها و أشكر الحاضرون على القدوم لإستقبالي )) فقام وزير التربية و التعليم و قال : (( أهني يوسف على اختراع فاد العالم أجمع و يوسف خير مثال للبشرية لكل من فقد حاسة او عضو من جسمه لا ييأس من حياته بل يبعث في نفسه روح الأمل و الإصرار على تحقيق الهدف و شكرا لك يا يوسف أنت فخر لهذا البلد و أتمنى الكل يقتدي بك )) .

ذهب الحاضرون إلى منازلهم ، و ذهبت و معي حلا إلى المنزل مع عمي ، و عشنا حياة سعيدة ، و بعد سنتين توفي عمي فحزنت عليه و فرحت لزواج حسام و حازم ،و سهى تعمل في قسم العلوم و الإختراعات، و أنجبت حلا طفلة جميلة لي أسميتها مــــــــنى و عشنا في سعادة و هناء .